العبثية

توماس ناجل

Thomas Nagel

"The Absurd"

The Journal of Philosophy

Volume 68, Issue 20, October 1971, pp.716-727

ترجمة: مروان محمود | مراجعة: إبراهيم الكلثم

يشعر معظم الناس أحيانًا بأن الحياة عبثية، وبعضهم قد يشعر بذلك بصورة جلية وبصفة مستمرة. ومع ذلك فإن الأسباب التي تقدم عادة دفاعًا عن هذه القناعة غير مقنعة بشكل واضح؛ إذ **لم يتمكنوا** من تقديم مسوغات تدعم قناعتهم؛ فلماذا، إذن، يفصحون عن العبثية بهذه التعابير وكأنها أمر عادي ومسلم به؟

I

لنتناول بعض الأمثلة: غالبًا ما يُقال إنّ لا شيء مما نقوم به الآن سيكون له أهمية بعد ملايين السنين، ولكن إنْ صح ذلك؛ فمن نفس المنطلق، لا شيء سيقع بعد ملايين سنة سيكون له أهمية الآن. وبعبارة أدق، لا يعنينا الآن، بأن ما نفعله الآن لن يكون له أهمية بعد ملايين السنين. ولكن حتى **لو أن** ما نفعله الآن سيكون ذا أهمية بعد ملايين السنين؛ فكيف لذلك أن ينزع صفة العبثية من مشاغلنا الحاليّة؟ فإن كانت أهمية هذه الشواغل حاليًا ليست كافية لتحقيق ذلك؛ فكيف سيجدي ذلك نفعًا إنْ أصبحت مُهِمة بعد ملايين السنين من الآن؟

سيوجد فرق حاسم في قضيّة أهميّة أفعالنا من عدمها بعد ملايين السنين فقط في حال كانت أهميتها بعد ملايين السنين تعتمد على أهمية هذه الأفعال نفسها قولاً واحدًا؛ إذ إن إنكار أهميتها بعد ملايين السنين هي مصادرة على المطلوب فيما يتعلّق بأهمية هذه الأفعال؛ فبهذا المعنى، لا يمكن للمرء أن يعرف بأن سعادةَ امرئ أو تعاستِه

-مثلًا- ستكون ذات أهمية بعد ملايين السنين دون أن يعرف بأن هذه السعادة أو التعاسة ذاتها ليست ذات أهميّة.

ما نقوله إعرابًا عن عبثية حياتنا غالبًا ما يتعلق بالمكان أو الزمان؛ فنقول مثلًا إننا ذرات غبار صغيرة في امتداد الكون اللامتناهي؛ أو إنّ حياتنا مجرد هنيهة عابرة حتى بالنسبة للمقياس الزمني الجيولوجي، بله بالمقياس الكوني؛ أو إننا قد نموت في أية لحظة. لكن بالطبع هذه الوقائع الجلية ليست هي ما **يجعل** الحياة عبثية، لو سلّمنا بأنها كذلك. فهب أننا عشنا إلى الأبد؛ ألن تصبح تلك الحياة العبثيّة التي استمرت سبعين عامًا عبثيةً عبثًا أبديًا أيضًا إنْ استمرتْ إلى الأبد؟ وإنْ كانت حياتنا عبثية نظرًا إلى حجمنا الحالي؛ فلماذا ستكون أقل عبثية في حال ملأنا الكون (سواء ملأناه بسبب زيادةٍ في حجمنا أو نقصٍ في حجم الكون)؟ يبدو أنّ التفكيرَ في ضآلةِ أحجامنا وقصرِ أعمارنا مرتبطٌ ارتباطًا وثيقًا بفكرةِ أن الحياة لا معنى لها [بحسب من يقول بعبثية الحياة]؛ ولكن ليس واضحًا ما العلاقة بين الأمرين.

توجد حجة ضعيفة أخرى مفادها أن كل سلاسل التسويغ ينبغي ألّا يُبتّ فيها؛ فبحسب هذه الحجة، يدرس المرءُ ويعمل كسبًا للمال لكي يدفع ثمن الملابس والسكن والترفيه والطعام، ولكي يحافظ على نفسه من عام إلى آخر، وربما لكي يعيل أسرته ويمارس مهنته، ولكن ما الغاية النهائية؟ فكل ذلك ليس إلا رحلة طويلة تقود إلى لا مكان. (سيكون للمرء أيضًا بعض التأثير على حياة الآخرين، لكن هذا ببساطة يعيد إنتاج المشكلة، لأنهم سيموتون أيضًا).

هناك العديد من الردود على هذه الحجة. أولاً، لا تتألف الحياة من سلسلة من الأنشطة التي لكل منها غرضه المتمثل في بعض العناصر التالية في السلسلة. تنتهي سلاسل التسويغ مرارًا وتكرارًا ضمن الحياة، وسواء أمكننا تسويغ العملية ككل أم لا؛ فإن ذلك لا يملك تأثيرًا على غائيّة النقاط التي تنتهي عندها سلاسل التسويغ هذه؛ إذ ليست هناك حاجة -مثلًا- إلى تسويغ تناول حبّة الأسبرين لعلاج الصداع من أجل أن يكون هذا الفعل معقولًا، أو حضور معرض لعمل الرسام الذي يعجب المرء، أو منع الطفل من وضع يده على موقد ساخن. فلا نحتاج سياقًا أكبر أو غاية أخرى لكي لا تكون هذه التصرفات عديمة الجدوى.

حتى وإنْ رغب أحدهم في تقديم تسويغات أخرى لممارسة كل هذه الأمور في الحياة التي عادة ما ينظر إليها على أنها مُسَوّغة ذاتيًا، فإن هذا التسويغ يتعين أن ينتهي عند نقطة معينة أيضًا. فإنْ سلّمنا بأنه لا يمكن تسويغ ما لم يسوَّغ، تسويغًا من جانب شيء خارج عنه؛ فسنقع في الدور المنطقي، ولا يمكن أن تكتمل سلسلة التسويغ حينها. وعلاوة على ذلك، إنْ كان لا يمكن لسلسلة محدودة من الأسباب تسويغ أي شيء، فما الذي يمكن تحقيقه عبر سلسلة غير محدودة، إذا كان كل رابط منها ينبغي تسويغه من خلال شيء ما خارج عنه؟

ونظرًا لأن التسويغات يجب أن تقف عند حد ما؛ فلن نحقق شيئًا يذكر إن أنكرنا أنها تنتهي في المكان الذي تظهر فيه؛ أي في داخل الحياة؛ ولن نحقق شيئًا أيضًا بمحاولة استيعاب مسوغات الأفعال المتعددة -التي عادةً ما تكون عاديةً وبديهية- تحت خطة حياة واحدة وشاملة. يمكننا أن نقتنع بطريقة أسهل من ذلك. في الحقيقة، بسبب سوء تمثيل سلسلة المسوغات، فإن الحجة تملي مطالب فارغة؛ إذ إنها تصر على أن الأسباب الموجودة في الحياة غير كافية، ولكنها تُضمِر بناءً على ذلك أن جميع الأسباب التي وصلت إلى نهايتها غير تامة، وهذا ما يجعل من المستحيل تقديم أي أسباب تبرر ما نفعل على الإطلاق. إذن، يبدو أن حجج العبثية المعيارية لم تحقق غرضها بوصفها حججًا. ومع ذلك، أعتقد بأنها تحاول التعبير عن شيء يصعب الإفصاح عنه، ولكنه صحيح في جوهره.

II

يكون الموقف عبثيًا في الحياة العادية عندما ينطوي على تناقض جلي بين التطلعات (أو الطموح) وبين الواقع؛ فمثلًا قد يلقي شخص ما خطابًا معقدًا دعمًا لإجراء حكومي قد نُفذّ، أو قد يُنَصّب مجرم سيء السمعة رئيسًا لمؤسسة خيرية كبرى، أو قد تُعلن عن حبك عبر الهاتف لإعلان مسجل، أو قد يسقط بنطالك حين تُقلّد وسامَ الفروسيّة.

عندما يجد المرء نفسه في حالة عبثية، فسيحاول تغييرها عادةً، عن طريق تعديل طموحه، أو عن طريق محاولة جعل الواقع في توافق أفضل معها، أو عن طريق إبعاد نفسه عن الحالة بالكامل. لسنا دائمًا مستعدين أو قادرين على انتشال أنفسنا من موقف باتت عبثيته واضحة لنا. ومع ذلك، عادة ما يكون من الممكن تخيل بعض

التغييرات التي من شأنها أن تُقصي العبثية؛ بصرف النظر عن مقدرتنا على تحقيق ذلك من عدمها. ينشأ الإحساس بأن الحياة ككل عبثية عندما نفهم، ربما فهمًا خافتًا، أن ادعاءً أو طموحًا مبالغًا فيه ملازم لاستمرارية الحياة، مما يجعل عبثيتها لا مناص منها، وجزء لا يتجزّأ من الحياة نفسها.

إنّ حياة الكثير من الناس عبثية، بشكل موقت أو دائم، لأسباب مألوفة تتعلق بطموحاتهم وظروفهم وعلاقاتهم الشخصية. ولكن إن كان يوجد معنى فلسفي للعبثية، فينبغي أن ينشأ من تصور لشيء كوني؛ أي من ناحية ما حيث تتعارض فيه التطلعات والواقع تعارضًا حتميًا بالنسبة لنا جميعًا. وأعتقد بأن هذه الحالة تنشأ بواسطة التصادم بين الجدية التي نأخذ بها حياتنا والاحتمال الدائم باعتبار كل شيء نأخذه مأخذ الجد بوصفه تعسفيًا أو عرضة للشك.

لا يمكننا أن نعيش حياة إنسانية دون حيوية واهتمام، أو بدون اتخاذ خيارات تُظهر أننا نأخذ بعض الأشياء على محمل الجد أكثر من غيرها. ومع ذلك، لدينا دائمًا وجهة نظر خارج الشكل المعين لحياتنا، والتي يبدو من خلالها أن الجدية لا مسوغ لها. وتصطدم وجهتا النظر اللتان لا مفر منهما بداخلنا، وهذا ما يجعل الحياة عبثية. إنها عبثية لأننا نتجاهل الشكوك التي نعرف أنه لا يمكننا حسمها، والاستمرار بالعيش مع جدية كاملة على نحو وثيق على الرغم من هذه الشكوك.

يستلزم هذا التحليل الدفاع من جانبين: يتعلق الجانب الأول بضرورة الجدية، ويتعلق الثاني بحتمية الشك.

نحن نأخذ أنفسنا على محمل الجد سواء كنا نعيش حياة جدية أم لا، أو سواء كنا معنيين في المقام الأول بالشهرة، أو المتعة، أو الفضيلة، أو الرفاهية، أو الانتصار، أو الجمال، أو العدالة، أو المعرفة، أو النجاة، أو مجرد البقاء على قيد الحياة. وفي حال أخذنا الآخرين على محمل الجد وكرّسنا أنفسنا لهم، فذلك يضاعف من حدّة القضية أيضًا. حياة الإنسان ممتلئة بالمحاولات والخطط والتدابير والنجاحات والإخفاقات؛ إذ إننا **نسعى** في حياتنا بدرجات متفاوتة من الكسل والنشاط.

سيختلف الأمر لو أننا لا نتخذُ مسافةً من عملية السعي في الحياة، بمعنى لو كنا نُقاد فحسب من اندفاع إلى اندفاع أو من نزوة إلى نزوة دون وعي ذاتي بهذه العملية. لكن لا يتصرف البشر وفقًا للاندفاعات والنزوات فحسب؛ إذ إنهم يعقلون ما يفعلون، ويفكرون فيه، وينظرون في العواقب، ويتساءلون عمّا لو كان ما يقومون

به جدير بالاهتمام أم لا. لا يقتصر الأمر فقط على أن حياتهم مليئة بخيارات معينة تتشابك معًا في أنشطة أكبر ذات بنية دنيوية، بل إنهم يقررون على أوسع نطاق ما يجب ممارسته وما الذي يجب تجنبه، وما هي الأولويات التي يجب أن تكون من بين أهدافهم المختلفة، ونوع الأشخاص الذين يريدون أن يكونوا أو يصبحوا عليه في المستقبل. يواجه بعض البشر مثل هذه الخيارات بواسطة القرارات الكبيرة التي يتخذونها بين حين وآخر، والبعض فقط من خلال التفكير في المسار الذي تتخذه حياتهم بوصفه ثمرة لقرارات صغيرة لا حصر لها. إنهم يقررون بمن يتزوجوا، وما المهنة التي يجب ممارساتها، وما إذا كان ينبغي الانضمام إلى نادي المدينة أو إلى حركة المعارضة، أو ربما يتساءلون فقط عن سبب استمرارهم في كونهم بائعين أو أكاديميين أو سائقي سيارات أجرة، ثم يتوقفون عن التفكير في الأمر بعد فترة معينة من التفكير غير الحاسم.

على الرغم من اندفاعهم من فعل إلى فعل بسبب تلك الاحتياجات الماسة التي تطرحها الحياة، إلا أنهم يسمحون للعملية بالاستمرار بتمسّكهم بنظام العادات المعتاد وشكل الحياة التي يكون فيه لمثل هذه الدوافع مكانها، أو لعلهم يفعلون ذلك من أجل التشبث بالحياة نفسها؛ فهم يبذلون كميات هائلة من الطاقة والمجازفة والنظر في هذه التفاصيل. تأمّل في اهتمام الفرد العادي بمظهره، وبصحته، وبحياته الجنسية، وبصدقه العاطفي، وبمصلحته الاجتماعية، وبمعرفته الذاتية، وبطبيعة علاقاته مع العائلة والزملاء والأصدقاء، وبكفاءة أداء عمله، وما إذا كان يفهم العالم وما يجري فيه. إنّ عيش حياة إنسانية هو انشغال دائم، يكرس كل شخص له عقودًا من الاهتمام الشديد.

إنّ هذه الحقيقة واضحة للغاية لدرجة أنه من الصعب أن نجدها استثنائية وهامة. كل فرد منا يعيش حياته الخاصة، يعيش مع نفسه أربع وعشرين ساعة في اليوم. ماذا يفترض أن يفعل؛ أن يعيش حياة شخص آخر؟ ومع ذلك، لدى البشر هذه القدرة الخاصة على اتخاذ مسافة تأملية من حياتهم، ودراسةِ أنفسهم، ودراسة الحياة التي هم ملتزمون بها أيضًا، وهم يفعلون ذلك بنفس الدهشة المتجردة النابعة من متابعة نملة تصارع صاعدةً كومة من الرمال؛ من دون التوهم بأنهم قادرون على الهرب من موقعهم بكل ما فيه من تفاصيل دقيقة تخص كل فرد منهم، فهم قادرون على رؤية حياتهم رؤيةً **مُتجردةً وموضوعيةً sub specie aeternitatis** وتُعد هذه الرؤية رؤيةً جادة وهازلة في آن واحد.

لا تُتَخذ المسافة التأمليّة (الحاسمة) من الحياة بواسطة المطالبة بتسويغ آخر في سلسلة التسويغ، والفشل في الحصول عليه. وقد بيّنتُ اعتراضاتي على هذه الحجة؛ إذ قلت إنّ التسويغات لا بد لها من نقطة تقف عندها. ولكن هذا هو بالتحديد ما يوفر شكّاً كونيًا في غاية الحياة؛ إذ إننا نتخذ مسافة تأمليّة من الحياة لنجد أن نظام التسويغ والانتقاد برمته، الذي يتحكم في اختياراتنا ويدعم ادعاءاتنا للعقلانية، يستند على ردود الفعل والعادات التي لا نشكك فيها أبدًا، والتي لا يمكن لنا أن نعرف كيف يمكن الدفاع عنها دون الدوران في حلقة مفرغة، والتي سنستمر في الالتزام بها حتى بعد أن يُشكك فيها.

إنّ الأشياء التي نقوم بها أو نريدها دون أسباب، ودون الحاجة إلى أسباب -الأشياء التي تحدد ما هو السبب بالنسبة لنا وما ليس كذلك- هي نقاط انطلاق لشكوكيتنا [فهي ما يجعل التشكك ممكنًا]. نرى أنفسنا من الخارج، وكل احتمالات وخصوصية أهدافنا ومساعينا تصبح واضحة. ومع ذلك، عندما ننظر من هذا المنظار، ونلاحظ أن ما نفعله بوصفه تعسفيًا؛ فإن ذلك لا يفصلنا عن الحياة، وهنا مكمن عبثيتنا: ليس لأننا قادرون على أن ننظر بهذه النظرة الخارجية، بل لأننا قادرون عليها دون أن نكفّ عن أن نكون أشخاصًا يرون غاياتهم القصوى والسامية في الحياة ببرود وفتور.

III

قد يحاول المرء الخروج من هذا الموقف من خلال البحث عن اهتمامات سامية أوسع نطاقًا، والتي من المستحيل اتخاذ مسافة تأملية منها، والمراد من الفكرة هنا هو أن العبثية تنتج بسبب أن ما نأخذه بجدية هو شيء صغير وتافه وفردي. فأولئك الذين يسعون إلى مَدّ حياتهم بالمعنى عادة ما يتصورون دورًا أو مهمة في شيء أكبر من أنفسهم. إنهم يبحثون بالتالي عن الإنجاز في خدمة المجتمع، والدولة، والثورة، وتقدم التاريخ، وتقدم العلم، أو الدين والتسبيح بعظمة الله.

لكن الالتزام بدور في نشاط معين أكبر من الفرد لا يمكن أن يضفي معنى ما لم يكن هذا نشاط بحد ذاته ذا معنى. ويجب أن تعود أهميته إلى ما يمكننا فهمه، وإلا فلن يبدو حتى أنه يمنحنا ما نسعى إليه. إن علمنا أننا نُشّئنا بغرض توفير الغذاء لمخلوقات أخرى تعتاش على اللحم البشري ومولعة به، والتي خططت لتحويلنا إلى شرائح لحم قبل أن يقسو لحمنا، حتى لو علمنا أن الجنس البشري قد ربّاه مربو الحيوانات لهذه الغاية

بالتحديد؛ فإن ذلك لن يمنح حياتنا معنى؛ لسببين: أولاً، سنظل جهلة فيما يتعلق بمغزى وجود تلك الكائنات الأخرى، وثانيًا، على الرغم من أننا قد نقر بأن دور اللحم المطبوخ هذا سيجعل حياتنا ذات معنى بالنسبة لهم، إلا أنه ليس من الواضح كيف سيجعلهم ذلك ذوي معنى بالنسبة لنا.

ومع ذلك أعترف بأن النمط الذي يقدّم فيه خدمة أو عبادة كائن أعلى يختلف عن ذلك؛ فمن المفترض أن ينظر المرء إلى عظمة الله ويسبح بحمده، على نحو لا يفعله الدجاج تجاه عظمة تحوله إلى طبق الكوك أو فين coq au vin، مثلًا. ويصدق الشيء نفسه في خدمة دولة أو حركة أو ثورة. باستطاعة الناس أن يشعروا، عندما يصبحوا جزءًا من شيء أكبر من أنفسهم، أن هذا الشيء الأكبر جزءٌ منهم أيضًا. فلا يشغل بالهم حينها ما هو خاص بهم؛ إذ يتماهون بما فيه الكفاية مع هذا المشروع الأكبر حيث يرضيهم دورهم فيه.

ومع ذلك، قد نضع أي غاية عظمى كهذه موضع شك كما نُشكك بأهداف الحياة الفردية، ولنفس الأسباب. أن نجد مسوغًا مطلقًا في هذه الحالة له نفس المشروعية في الحالة المذكورة أعلاه؛ أي في تفاصيل حياة الفرد. لكن هذا لا يُغيّر حقيقة أن المسوغات تقف عند نقطة نهائية معينة حين نرضى أن تقف عند هذه النقطة المعينة؛ أي حين لا نجد ضرورةً في تسويغ هذا المسوغ. فإنْ أمكننا أن نتخذ مسافة من أهداف الحياة الفردية، وأن نشكك في غايتها، فيمكننا أيضًا اتخاذ مسافة من تقدم التاريخ البشري، أو العلم، أو نجاح المجتمع، أو ملكوت الله وعظمته ومجده[1]، ويمكننا أن نُسائل كل هذه الأمور كما ساءلنا تلك. ما يبدو لنا أنه يمنح المعنى، والتسويغ، والمغزى، هو يمنحنا ذلك بحكم أننا لا نحتاج إلى المزيد من الأسباب [لكي يمنحنا المعنى] بعد نقطة معينة.

ما يجعل الشك محتومًا بشأن الأهداف المحدودة للحياة الفردية، يجعله محتومًا أيضًا فيما يتعلق بأي غاية عظمى تعزز شعور أن الحياة ذات معنى؛ فبمجرد ما ينشأ الشك الجذري؛ فلن يوقفه شيء.

يوكد كامو في أسطورة سيزيف The Myth of Sisyphus أن منشأ العبث هو فشل العالم في تلبية مطالبنا بالحصول على معنى للحياة، وهذا يضمر أن العالم قد يلبي مطالبنا هذه إنْ كان مختلفًا. ولكن يمكننا أن نرى الآن أن هذا غير صحيح؛ إذ لا يبدو أن هناك أي عالم يمكن تصوره (ونكون فيه) لا تنشأ فيه شكوك مستعصية على الحل. وبناء عليه، فإن عبثية حالتنا لا تنبع من تصادم بين توقعاتنا والعالم، بل من تصادم دواخلنا مع أنفسها.

IV

وقد يقول قائل معترضًا إنّ المنظور الذي نتبناه في شكوكنا هذه غير موجود؛ بمعنى، لو أننا اتخذنا تلك المسافة المحمودة من سيرورة حياتنا؛ فسنقف في مهب الريح؛ إذ لا توجد حينها أرضية نبني عليها حكمًا بشأن استجاباتنا الطبيعية والتلقائية في حياتنا التي يفترض أننا نراها عن بعد من هذا المنظور. فلو أننا احتفظنا بمعاييرنا المعتادة لما هو مهم، فستكون الأسئلة المتعلقة بمعنى ما نفعله في حياتنا قابلة للإجابة بالطريقة المعتادة. لكن إن لم نفعل ذلك، فإن تلك الأسئلة لا يمكن أن تعني شيئًا لنا، حيث لم يعد هناك أي فحوى لفكرة ما هو مهم، وبناء على ذلك، لا يوجد فحوى لفكرة أن لا شيء مهم.

لكن هذا الاعتراض يسيء فهم طبيعة اتخاذ مسافة تأملية من سيرورة حياتنا؛ إذ ليس من المفترض منها أن تمنحنا فهمًا لما هو مهم **حقًا**، بحيث نرى في مرآتها أن حياتنا تافهة وبلا معنى. نحن لا نتخلى أبدًا في سياق هذه التأملات عن المعايير العادية التي توجه حياتنا؛ فما يحدث في هذه التأملات ليس إلا ملاحظة تلك المعايير تطبيقيًا وفي أرض الواقع، وندرك أنه في حال وُضعت موضع سؤال، فإننا يمكننا تسويغها بالإحالة إليها فحسب؛ إحالةً لا فائدة منها. إننا نتمسك بها بسبب الطريقة التي تشكلنا بها، فما يبدو لنا مهمًا أو جادًا أو ذا قيمة لن يبدو على هذا النحو إن تم تشكيلنا بطرق مغايرة.

لا يمكننا، بالتأكيد، في الحياة العادية أن نحكم على حالة معينة بالعبثية إلا إذا وضعنا في الاعتبار بعض معايير الجدية والمعنى والتناغم التي تقف العبثية في مقابلها. ولا تنطوي هذه المقابلة على حكم فلسفي بالعبثية، وقد يعتقد أن هذا يجعل المفهوم غير لائق للتعبير عن مثل هذه الأحكام. وعلى أي حال، الأمر ليس كذلك؛ لأن الحكم الفلسفي يعتمد على مقابلة أخرى تجعله امتدادًا طبيعيًا للحالات الأكثر عادية، إنما ينفصل الحكم الفلسفي عن هذه الحالات من حيثية مقابلتها تطلعات حياة معينة وادعاءاتها مع سياق أكبر **لا يمكن أن** تُكتشف فيه أية معايير، وليس مع سياق قد تُطبق منه معايير بديلة ومهيمنة على المعايير السابقة.

٧

إنّ التصور الفلسفي للعبثية من هذا الجانب -ومن غيره- يشبه الشك الإبستمولوجي؛ ففي كلتا الحالتين، لا يُقابل الشك الفلسفي القطعي مع يقينيات لا يجادل فيها أحد، وإنْ كان قد يُوصل إليه عن طريق استقراء أمثلة شكوكية ضمن نظام معين للدلائل والتعليل؛ حيث [داخل هذا النظام] **تُعقد** مقابلة بين يقينيات أخرى. وفي كلتا الحالتين، تعضد محدوديتنا قدرةُ مجاوزةِ هذه الحدود ذهنيًا (وبناء عليه، نراها بوصفها حدودًا أو قيودًا لا مناص منها).

يبدأ الشك عندما ندرج أنفسنا في العالم الذي ندعي معرفته؛ إذ نلاحظ أن أنواعًا معينة من الأدلة تقنعنا، وأننا مرتاحون للسماح لتسويغات الاعتقاد أن تصل لنهايتها عند نقاط معينة، وأننا نشعر بأننا نعرف أشياء كثيرة حتى دون معرفة أشياء غيرها، ودون امتلاك أسس نبني عليها اعتقادنا برفض هذه الأشياء الأخرى، التي إن صحّت، قد تجعل ما ندعي معرفته باطلاً.

على سبيل المثال، أعرف بأني أحدّق في ورقة، رغم أنني لا أمتلك مسوغات مقنعة للادعاء بأنني أعرف أنني لا أحلم؛ وإن كنتُ أحلم؛ فانا لا أحدّق في ورقة؛ حيث يوظف في هذه الحالة مفهوم عادي حول اختلاف المظهر عن الواقع من أجل تبيين أننا نأخذ عالمنا مأخذ التسليم إلى حد بعيد؛ إذ لا يمكن تسويغ أن اليقين الذي مفاده أننا لا نحلم إلا بواسطة الدور المنطقي؛ أي، بواسطة هذه المظاهر نفسها التي نُشكك فيها. من باب المغالة أن أُشير إلى أنني قد أحلم؛ ولكن إمكانية ذلك ليست إلا إمكانية توضيحية؛ فهي تُبيّن أن ادعاءاتنا المعرفية قائمة على شعورنا بأنه ليس ضروريًا أن نُقصي بدائل غير متوافقة، وأن إمكانية أن المظاهرَ حلمٌ أو هلوسةتامة لا تُمثل إلا إمكانيات لا محدودة لا يمكننا حتى تصوّر أغلبها.(2)

فحين نتخذ مسافة من حياتنا نحو وجهة نظر مجردة عن نظامنا الكامل من المعتقدات، والأدلة، والتسويغ، ونرى أن هذا النظام يعمل فقط -على الرغم من تطلعاته ومزاعمه- بواسطة أخذ العالم مأخذ التسليم إلى حد بعيد؛ فحينها، **لسنا** في وضع يتيح لنا مقابلة كل هذه المظاهر بواقع بديل. لا يمكننا أن نتخلى عن استجاباتنا العادية للعالم في حياتنا، وإنْ استطعنا ذلك، فإن ذلك سيتركنا بدون أي وسائل لفهم أي ضرب من ضروب الواقع.

وينطبق ذات الأمر في المجال العملي؛ إذ إننا لا نخطو خارج حياتنا إلى زاوية نظر أخرى نرى من خلالها ما له معنى حقًا على نحو موضوعي، بل نحن نستمر بأخذ الحياة إلى حد كبير جدًا كأمر مسلم به، ونرى أن كل قراراتنا ويقينياتنا ممكنة فقط لأن هناك أشياء كثيرة لا نهتم باستبعادها.

إنّ التوصل إلى الشك الإبستمولوجي والشعور بالعبثية يكون ممكنًا بواسطة الشكوك الأولية المطروحة ضمن أنظمة الأدلة والتسويغ التي نقبلها، ويمكن التعبير عنها دون البطش بمفاهيمنا العادية. فلا يمكننا فحسب أن نطرح سؤال لماذا ينبغي علينا الاعتقاد بوجود طابق تحتنا، ولكن أيضًا لماذا ينبغي علينا الاعتقاد والوثوق بحواسنا من الأساس، وعند نقطة معينة، ستبقى الأسئلة المطروحة دون أجوبة. وبالمثل، لا يمكننا فحسب أن نتساءل عن سبب تناول الأسبرين، بل وعن سبب الاعتناء بأنفسنا من الأساس. إنّ حقيقة أننا سنتناول الأسبرين دون انتظار إجابة عن هذا السؤال الأخير لا تظهر أنه سؤال زائف. كما أننا سنواصل أيضًا الاعتقاد بأن هناك طابقًا تحتنا دون انتظار إجابة عن السؤال الآخر. في كلتا الحالتين، إنّ ثقتنا الطبيعية غير المدعومة بالأدلة هذه هي ما يولّد الشكوك؛ فلا يمكن استعمالها بغرض حلّها.

الشكوكية الفلسفية لا تجعلنا نتخلى عن معتقداتنا العادية، ولكنها تضفي عليها مسحة معينة. فبعد الإقرار بأن صحة الشكوك تتعارض مع إمكانيات لا نملك أساسًا للاعتقاد بها -بصرف النظر عن أساس تلك المعتقدات ذاتها التي وضعناها موضع شك – فإننا نعود إلى قناعاتنا المألوفة عودةً مشوبةً بالمفارقة الساخرة والاستسلام. نعجز عن التخلي عن استجاباتنا الطبيعية في الحياة التي تعتمد عليها تلك القناعات؛ فنستعيدها -مثل الزوج الذي هرب مع شخص آخر ثم قرر العودة- ولكننا ننظر إلى هذه القناعات نظرة مختلفة (ولا أقصد الإشارة إلى أن هذه العقليّة الجديدة في التعامل هي أدنى شأنًا من القديمة بالضرورة، في كلتا الحالتين).

وينطبق الأمر نفسه حين نضع الجدية التي نأخذ بها حياتنا (وحياة البشرية أجمع) موضع سؤال، وننظر إلى أنفسنا نظرةً خاليةً من الافتراضات المسبقة. ثم نعود إلى حياتنا، إذ لا مفر من ذلك، ولكنّ جديتنا قد سممتها المفارقة الساخرة، ولا يعني ذلك أن هذه المفارقة الساخرة تسمح لنا بالهرب من العبثية. إنّ تمتمة "الحياة بلا معنى، الحياة بلا معنى ..." مع كل فعل نفعله عديمة الجدوى؛ فبمواصلتنا العيش، والكدح في العمل، والسعي في الحياة؛ نحن نأخذ أنفسنا مأخذ الجد عمليًا، بصرف النظر عمّا نقول.

إنّ ما نعتاش عليه، ويحافظ على وجودنا؛ سواء نظريًا، في المعتقدات، أو عمليًا ليس تعقّل الأسباب أو معرفة مسوغات أفعالنا، بل هو شيء أبسط من هذه وتلك؛ فنحن نواصل حياتنا بنفس الطريقة حتى بعد أن ندرك أن الأسباب ليست كافية [3]. فلو أننا اعتمدنا كليًا على العقل وتعقّل الأسباب، وشددنا على ذلك؛ فقد تنهار معتقداتنا وحياتنا برمتها؛ إن فعل ذلك ضربٌ من الجنون الذي قد يتحقق فعلًا لو اِختلت قوّة توازننا في أخذ العالم والحياة كأمر مسلم به. لو أفلتنا قبضتنا عن هذه القوة؛ فلن يعيدها العقل لنا أبدًا.

VI

في رؤية أنفسنا من منظور أوسع مما يمكننا أن نتخذه في الجسد، فإننا نصبح متفرجين على حياتنا، لكن لا يمكننا أن نفعل شيئًا إن كنّا متفرجين خالصين على حياتنا؛ لذلك نواصل عيش حياتنا، ونكرس أنفسنا لما نحن قادرون على رؤيته -في نفس الوقت- باعتباره ليس أكثر من فضول، مثل طقوس دين غريب.

وهذا ما يُفسّر سبب إفصاح العبثية عن نفسها إفصاحًا يبدو طبيعيًا ومسلمًا به بتلك الحجج الرديئة التي استهللنا بها النقاش؛ فالإشارة إلى حجمنا الضئيل، وقصر أعمارنا، وأن البشريّة ستختفي يومًا دون أثر ليست إلا استعارات عن اتخاذ تلك المسافة التأمليّة من حياتنا التي تسمح لنا أن نتأمل أنفسنا دون افتراضات أو مسلمات مسبقة، والتي تسمح لنا كذلك أن نرى أن نمطَ عيشنا حياتنا الخاص مثيرٌ للفضول، ويحمل قدرًا من الدهشة. فحين نرى حياتنا من منظور كوني مفارق نبيّن قدرتنا على رؤية أنفسنا دون اِفتراضات مسبقة، أن نراها بوصفها أمرًا اعتباطيًا، وغيرَ اعتيادي (idiosyncratic)، وخاصًا بسكان [هذا] العالم، وشكلًا واحدًا من أشكال الحياة الممكنة.

قبل الانتقال إلى السؤال ما إن كانت عبثية حياتنا أمرًا يدعو إلى الأسف والندم، وإن كان ممكنًا التخلص منها، اسمحوا لي أتطرق إلى مالذي سنضطر إلى التخلّي عنه في حال تجنبنا العبثية.

لماذا حياة الفأر ليست عبثية؟ ومدار القمر ليس عبثيًا أيضًا، لكن مدار القمر لا يتضمن أي مساع أو أهداف على الإطلاق. لكن يجب على الفأر أن يعمل للبقاء على قيد الحياة، ومع ذلك هو ليس عبثيًا؛ لأنه يفتقر إلى القدرة على الوعي الذاتي وتجاوز الذات التي من شأنها أن تمكنه من رؤية أنه مجرد فأر. **لو حدث ذلك**، ووعى ذاته؛ فستصبح حياته عبثية؛ وذلك لأن الوعي الذاتي لن يجعله يتوقف عن كونه فأرًا، ولن يمكّنه من الارتفاع فوق مساعيه الفأرية؛ فبوعيه الذاتي الجديد لن يسعه العودة إلى حياته الصغيرة المحمومة بالمساعي والأهداف لا غير، وستثقل كاهله الشكوك التي لن يقدر على حلّها، كما ستثقل كاهله الغايات والأهداف التي لا يستطيع التخلّي عنها.

نظرًا إلى إلى أن اتخاذ الخطو التأملية المفارقة يُعد أمرًا طبيعيًا بالنسبة للبشر، هل يمكننا تفادي العبثية إن رفضنا اتخاذ هذه المسافة، وبقينا تمامًا في حياتنا كما يدور القمر حول مداره؟ حسنًا، لا يمكننا أن نرفض ذلك رفضًا واعيًا؛ لأن هذا الرفض الواعي يعني أن نعي وجهة النظر التي نرفض تبنيها. لا سبيل إلى تفادي هذا الوعي الذاتي الذي يعنينا في هذا السياق إلا عَبر طريقين لا ثالث لهما: إما بعدم حيازة هذا الوعي، أو بنسيانه، ولا يمكن بلوغ أيًا منهما بلوغًا إراديًا.

من ناحية أخرى، من الممكن بذل جهد في محاولة تدمير العنصر الآخر من العبثية؛ أي التخلي عن حياة المرء الأرضية والفردية والإنسانية من أجل التطابق بأكبر قدر ممكن مع وجهة النظر الكونية التي تبدو من خلالها الحياة الإنسانية اعتباطية وتافهة (ويبدو أن هذا هو المثل الأعلى لبعض الديانات الشرقية). إذا نجح المرء في ذلك؛ فلن يضطر المرء إلى أن يجر معه الوعي المتفوق إلى الحياة الدنيوية الشاقة، وستزول العبثية.

ومع ذلك، ما دام هذا الابتعاد عن النمو الطبيعي هو نتيجة للجهد، وقوة الإرادة، والزهد، وما إلى ذلك؛ فإنه يتطلب أن يأخذ المرء نفسه على محمل الجد كفرد؛ بمعنى أن يكون الشخص مستعدًا أن يتكبد عناءً هائلًا لتجنب أن يكون كائنًا حيًا عاديًا (creaturely) وعبثيًا. وعليه، قد يقوض المرء هدف ألا تكون معنيًا بحياتك الطبيعية العادية (unworldliness) عن طريق السعي خلف ذلك سعيًا حثيثًا. ومع ذلك، إنْ اطلق المرء سراح طبيعته الحيوانية واستجاب لغرائزه ودوافعه، دون أن يجعل السعي إلى استجابة حاجاتها هدفًا مركزيًا واعيًا؛ فحينها -وسيكلفه ذلك ثمنًا فصاميًا باهضًا- قد يبلغ حياةً تحمل قدرًا من العبثية أقل من أغلب الناس. وطبعًا،

لن تكون هذه حياة ذات معنى أيضًا، لكنها لن تتضمن وجود وعي مفارق في السعي المتعب وراء أهداف الحياة العادية؛ وهذا هو شرط العبثية الأساس: إكراه الوعي المفارق وغير المقنع في خدمة مشروع محايث ومحدود؛ مثل الحياة الإنسانية.

إن الانتحار هو المهرب الأخير، ولكن قبل تبني أي حلول عاجلة، سيكون من الحكمة التفكير بعناية فيما لو كانت عبثية وجودنا تمثل لنا حقًا **مشكلة**، والتي يجب إيجاد حل لها؛ أن يكون الانتحار طريقةً في التعامل مع ما يبدو بأنه كارثة من الوهلة الأولى. هذه هي بالتأكيد معالجة كامو للقضية، وهي معالجة تشد من أزرها حقيقة أننا نتلهف جميعنا للهرب من المواقف العبثية ضمن نطاق حياتنا المحدود.

يرفض كامو الانتحار -وإنْ كان رفضه لا يقوم على أسس ثابتة – كما يرفض الحلول الأخرى التي يعتبرها على أنها حلول تهرب من المشكلة. ما يوصي به هو التحدي أو الاحتقار. يبدو أنه يعتقد بأننا يمكن أن ننقذ كرامتنا، من خلال هز القبضة غضبًا في وجه عالمٍ الذي لا ينصت لنداءاتنا، والاستمرار في العيش على الرغم من ذلك. إنّ تبني ذلك لن ينزع العبثيّة من حياتنا، لكنه سيضفي عليها نبلًا معيّنًا[4].

يبدو لي ذلك رومانسيًا ومثير للشفقة قليلًا. لا تقتضي عبثيتنا هذا القدر من التأسي، ولا هذا القدر من التحدي. ومع أن ما سأقوله قد يؤدي إلى خطرَ الوقوع في الرومانسية عن طريق مختلف، إلا أنني أقول إنّ العبثيةَ واحدةٌ من أكثر الأشياء الإنسانية فينا؛ إذ إنها تجلٍ لأكثر سماتنا تقدمًا وأهميةً. إنّ العبثية مثل الشكوكية في الإبستمولوجيا، لا تكون ممكنة إلا لأننا نملك نوعًا معينًا من التبصّر (insight)؛ ألا وهو القدرة على تجاوز أنفسنا في الفكر.

إنْ كان الإحساس بالعبثية هو وسيلة لإدراك موقفنا الحقيقي [في الحياة والعالم] (على الرغم من أنه لن يكون عبثيًا إلا إذا كان هناك إدراك)؛ فلماذا يتعين علينا الاستياء أو الهروب منه؟ إنّ العبثية -مثل القدرة على الشك الإبستمولوجي- تنتج من القدرة على فهم محدوديتنا البشرية؛ فهي ليست مصدرًا للمعاناة إلا إنْ جعلناها كذلك، كما أننا لسنا مضطرين إلى إبداء احتقارٍ يتحدى القدر بحيث يسمح لنا ذلك أن نشعر بالسعادة أو الفخر. إن مثل هذه الدراما المبالغ فيها -حتى وإن تبناها المرء بينه وبين نفسه- لا تفهم فشل أن تقدّر عدم الأهمية الكونية للموقف الذي نعيشه. لو كان ما ينبني على تأمّل حياتنا تأملًا موضوعيًا مُتجرّدًا هو عدم وجود سبب

للاعتقاد بوجود شيء ذي أهمية؛ فهذا [التأمل] نفسه غير مهم أيضًا، ولعلنا نقدّر عبثية حياتنا تقديرًا فيه مفارقة ساخرة، بدلًا من النزعة البطولية أو القنوط.

الهوامش

١. Cf. Robert Nozick, "Teleology," Mosaic, xu, 1 (Spring 1971): 27/8

٢. أدرك أن الشكوك حول العالم الخارجي قد تم دحضها على نطاق واسع، لكنني ظللت مقتنعًا بعدم قابليتها للدحض منذ أن تعرضت في بيركلي Berkeley لأفكار تومسون حول هذا الموضوع التي لم يُنشر أغلبها.

٣. كما يقول هيوم في فقرة مشهورة من المقالة Treatise: " إنّ العقلَ غير قادرٍ على تبديد هذه الغيوم، فالطبيعة نفسها تلبي هذا الغرض، وتُشفيني من هذه الملنخوليا الفلسفية والهذيان، وذلك إما بإراحة هذا الانشغال الذهني، أو بممارسة هواية من الهوايات، وبثّ الحيوية في حواسي؛ فتزول على إثر ذلك كل هذه الأوهام. إذْ أتعشى وألعب النردْ وأبادل أصدقائي الحديث وأتسلى معهم، وبعد ثلاث أو أربع ساعات من اللهو، أعود إلى هذه التكهنات فتبدو لي باردةً وجافة وسخيفة إلى درجة لا يمكنني أن أجبر بها نفسي على مواصلة بحثها» [الكتاب الأول، القسم السابع.]

٤. "سيزيف عامل كادح للآلهة، عاجز وثائر، عارف بآفاق ظروف بؤسه: هذه الوضعية الشقية هي التي يفكر فيها لحظة نزوله. وصحوته التي كانت تُشكّل عذابه أصبحت في نفس الوقت ما يكلل نصره. ليس من القدر ما لا يُتجاوز بالاحتقار." (The Myth of Sisyphus, Vintage edition, p.90)

ثبت المصطلحات

Absurd	عبث/ عبثية
Argument(s)	حجة/حجج
Aspiration	طموح/تطلعات
Arbitrary	اعتباطي
Abstract	مجردة
Beliefs	معتقدات
Doubt	شك
Certainties	يقينيات
Enterprise	عمل/مشروع
Extrapolation	استنباط
Evidence	دليل/أدلة
Facts	حقائق/وقائع
Formable	قابل للصياغة
Grounds	أسس

معنى
manaa

Heroism	نزعة بطولية
Impulse	اندفاع
identify with	التماهي مع
irony	مفارقة ساخرة
Justification	تسويغ
Judgment	حكم
Matter	مهم
Myth	أسطورة
Misconceives	يسيء فهم
Mundane	دنيوية
Ordinary	عادي
Objections	اعتراضات
Purpose	غاية
Pointless	عديمة الجدوى
Pretension	تطلعات
Perception	تصور

معنى
manaa

Presuppositions	افتراضات مسبقة
prima facie	من الوهلة الأولى
Reasons	أسباب
Reasonable	معقول
Reality	واقع
Sequence	سلسلة
Seriousness	جدية
Self consciousness	وعي ذاتي
self-knowledge	معرفة ذاتية
sub specie aeternitat	موضوع مُجرّد
skepticism	شكوكية
significance	معنى
self transcenden	تجاوز/تعالي ذاتي
self-awareness	وعي ذاتي
Universal	كوني